إلى جَميع أصدقائِي على مَواقِع السّوشَل ميديا.. وكلِّ من يُتابعُ مَسيرَتي الأدَبيَّة.

الطّبعة الرَقميَّة الأولى، كانون الثاني ٢٠١٨

.

إنْ لمْ يَكن هُناكَ ما يُنقذنا
منَ المَوْت ..
فليُنقذنا الحُبُّ ..
على الأقَلّ ..
منَ الحَيَاة !

بابلو نيرودا

لندن أيلول ٢٠١٦.

إنّه اللِّقاءُ الثّالثُ والأخير، بينَ المُحَقِّق شَكيب مْدَوَّر والشَابّ الأربَعينيّ صَخر سويدان.

والرَّجُلان جالسان إلى طاولةٍ لشَخصَين، تُظلِّلُهما شَّمسيَّةٌ زَرْقاءُ مُربَّعَة، على رَصيفِ أحَدِ المقاهي اللّندنيَّة التَقليديَّةِ الطّابع، والمُتَناثرَة على ذلِكَ الطّريق الهادئِ المُوَاجهِ لنَهرِ التَّايمز، حيث الدّرابزون الخَشَبيّ المُزَخرَف، والأشجارُ المُمتدَّة عبرَ الرَّصيفِ البَعيد، كلَّ عشرين مترًا شجَرة، ممَّا يُضفي على هذه البُقعَة جَوًّا شاعريًّا مُؤنسًا. السيَّاراتُ قليلة.. والمَارَّةُ كأنَّهُم هياكلُ وألوانٌ وَهميَّة تتَحرَّكُ وتتدَاعى.. لتؤلِّفَ خَلفيَّةً رومنسيَّةً لصَوتِ وكلماتِ صَخر سويدان، وهو يروي خاتمَةَ حِكايَتِهِ للمُحَقِّق الذي كادَ صَبرُهُ أن يَنفَد. أشعلَ المُحَقِّقُ سيكارَه ومَجَّ مَجَّةً في الفَضاء، ثمَّ رَشفَ رشفةً من قهوتِه، وقالَ لصَخر:

– أتوَسَّلُ إليك.. خلِّصني الآنَ من فيلمِكَ الأميركيِّ الطّويل الذي بدأتَ به منذ أيّام.

– حسنًا أيُّها المُحقِّق. لقد حدَّثتُكَ حتى الآن عن الخَلفيَّةِ الكاملة.. وَالأسباب والدَّوَافِع وَ..

– والآن الجَريمَة! والقاتلُ فيما لو كانت حقًّا جَريمَة. قاطعَ المُحَقِّقُ كلامَ صَخر.

– من وجهَةِ نَظَري.. هيَ جَريمَةٌ وليسَت جَريمَة.. ولكنَّها حَتميَّةٌ تاريخيَّة لغَريزَتِنا.. إنَّها لعنَةُ الذَّاتِ المُشتعِلةِ في دواخلِنا، وَتواطؤُ الأقدارِ السَّاخرَةِ معَ ذلكَ الخائنِ الجَريء المُختبئ في كواليس ماضينا.

– أرجوكَ يا صَديقي.. لا أريدُ أن أسمَعَ فلسفةً.. أريدُ الحَقيقة. قالَ المُحقِّقُ في نبرَةٍ تنِمُّ عن شَوقٍ مُلِحّ لمَعرفةِ مُلابَساتِ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥.

رَشفَ صَخر رَشفةً هو الآخر من قَهوتِه، ثمَّ راحَ يتكلَّم:

– عادَ غيث الرَّاسي من أميركا رَجُلَ اقتصادٍ كبيرًا، والبلَدُ يتخبَّطُ في اضطِراباتٍ وَمَشاكِلَ لا حصرَ لها. ثمَّ راحَ يُنشِئُ في بيروت شَركةً تلوَ الأخرى. وَعَنَّ له أخيرًا أن يلعبَ في السِّياسَة.. ربَّما، للحُصولِ على "وَثيقةٍ بَيضَاءَ" يشتري بها "تجَارتَهُ السَّوداء" العَتيدَة. من هنا كانَ اللّقاءُ حَتميًّا بينَه وبينَ غَسَّان الجُردي. غَسَّان الجُردي الذي حاولَ أن يُرَشِّحَهُ مَرَّةً، ويُظهِّرَهُ للرّأي العامّ في الانتخابات كمُنقِذٍ إقتصادِيّ مُلهَم، فتحَمَّسَ غيث في البدايَةِ، ثمَّ تراجعَ وانسَحَبَ من حَمْلةِ غسَّان الانتِخابيَّةِ الفاشلة. وأمّا أنا.. وابتداءً من عام ٢٠٠٠، أصبَحَتْ علاقتي وَطيدَةً بغسَّان الجُردي.. وكنتُ رَجُلَهُ الخَفِيّ! ثمَّ أنشَأتُ بعدَها شَركتي الخاصَّة، وبمُساعدَتِهِ، لأمْنِ وحِمَايةِ السِّياسيِّين ورجالِ الأعمال. ولكنَّ اسمَ غيث الرَّاسي.. لم يَطأ مصطبةَ سَمعي، ويَرُجَّ قبَّةَ ذاكرَتي، إلاّ عندما تحَدَّثَ إليَّ غَسَّان الجُردي ذاتَ يوم وقال:

– غيث الرّاسي.. إقتِصَاديٌّ كبير عائدٌ من أميركا. وهو بحاجَة لخمسَةِ رِجالٍ بمواصفاتٍ عاليةٍ لحِراستِهِ. وأريدُ منكَ أن تخدمَه يا صَخر.

لست أدري بالضَّبط ما الذي حدَثَ في داخلي. لا أعرفُ إذا كنتُ سَعيدًا أو حَزينًا، متشائمًا أو متفائلاً. كأنّي نَهرٌ متدفِّقٌ من الجبال.. وعندَ وصولي إلى البَحرِ أصبَحَتْ

مياهي لا حُلوَةً ولا مالحَة! بقيتُ لأيَّامٍ مضطربًا أفكِّرُ في حَيثيَّاتِ لقائي بغيث. ولكنَّ الأسئلة التي ناطَحَت عَقلي كثيرة. أتُراهُ مجرَّد تشابهٍ في الأسماء؟ وإذا كانَ هو نفسُه صاحبَ الاسم المَدَوَّن على غلافِ إنجيل وَفَاء.. ما هي الخَطوة التاليَة؟ كيف أعلنُ له هُويَّتي؟! وما هي رَدَّةُ فعلِهِ؟! أقنَعتُ نفسي بضَرُورَةِ التَريُّثِ قبلَ الشُّرُوعِ برَسم خارطةِ طريق. وَعملي معَه، في كلِّ الأحوال، سيَجعلُني في الدّائرَةِ الضيِّقة حيثُ الفرَصُ وفيرَة. ومع القليلِ منَ التَحرِّيات سأصِلُ إلى مُبتَغاي، وسوفَ أكتشِفُ لُغزَ غيث الرَّاسي، هذا المارد الذي حشَرَتهُ وَفاء في قمقمِ كلماتٍ قليلة وَأودَعَتني إيّاه. وَوفاء نفسُها لغزٌ هيَ الأخرى! تلكَ المَرأة المَهيبَةُ الرَّقيقةُ التي رَوَّتْ طفولتي من حَنَانِها في مَيتَمِ راهباتِ العازاريَّة. وسُرعانَ ما جَاءَني جَلاءُ كلِّ تلكَ التّساؤلات. لقد اتَّصَلَ بي غَسَّان الجُردي ذاتَ يوم ليَدعُوَني لتناولِ الغداءِ عندَه في البَربارَة ليُعرِّفَني بغَيث الذي كانَ مَدعوًّا أيضًا. فسَرَّتني الدَّعوَة كثيرًا. وكانَ هذا لقائي الأوّل به، من لقاآتِنا القليلةِ جدًّا قبلَ الحَادثة، فقد كانت رحلتي معَ غيث قصيرةً جدًّا. أذكرُ جيِّدًا.. كانَ يومَ سَبت.. وصلتُ حوالي السَّاعةِ الثانية عشرة، ركَنتُ سَيَّارَتي في المَرأبِ الفسيح، ومَشَيتُ بمُحاذاةِ الحَديقةِ نحوَ مَدخل تلكَ العَمارَةِ الفَخمَةِ واستَقَلَّيتُ المصعَد. قرعتُ البابَ وفتَحَتْ لي خادمَةُ البَيت، وسَمِعتُ صَوتَ الرَّجُلَين يُقَهقهان.. واتَّجَهتُ مباشرةً نحوَ مصدَرِ الصَّوت. كانا جالسَين يشربان الويسكي ويَتسامران. رآني غَسَّان.. قامَ وقالَ:

– هه.. هذا صَخر سويدان.

واقترَبَ منِّي وصافحَني بيُمناهُ وسيكارُهُ بيُسراه.. وقرَّبني من ضَيفِهِ الذي وقَفَ بدَورِه وصَافحَني. وتابعَ غسّان كلامَه:

– دَعني أعَرِّفْكَ يا صَخر على غيث الرَّاسي.. أحَد أبرز الاقتصاديِّين اللبنانيِّين في المَهْجَر. وقرَّبَ رأسَه منِّي وأضافَ في شبهِ همس، وغيث يَسمَعُ الكلام:

– ولأنَّ عُيونَ الحاسدين والفضوليِّين كثيرة من حَولِه.. فهو كثيرُ الحَذَر.. ومن يقومُ على حِرَاستِهِ يجبُ أن يكونَ يقظًا جدًّا.

ثمَّ جَلسنا ثلاثتُنا.. ورُحنا نتسامرُ في مواضيعَ شتَّى. في السِّياسَةِ والاقتصاد. وأخبَرَنا غيث طرائفَ كثيرَةً عن رحلةِ نضالِهِ في دُنيا البزنس في أميركا. وأمَّا أنا.. فكنتُ قليلَ الكلام كثيرَ التَّفكير. أتأمَّلُ هذا الإنسانَ نِصفَ الشّائب، المُمتلِئَ الجُثَّة، قاتمَ المَلامِح، أنيقَ الهندام، ذا جاذبيَّةٍ وكاريزما في حَديثِه، ويستخدمُ الأرقامَ مُختصرًا فيها الكثيرَ من المَضامين. كان واضحًا أنّه يُباهي بإنجازاتِهِ واثقًا بنفسِهِ حَدَّ التبَجُّح. وكانَ واضحًا لي أيضًا مَيلُهُ السِّيَاسِيّ ورَغبتُهُ للعَمَل في السِّياسَة. ومعَ كونِه ستِّينيًّا كما وشَتْ خصلَهُ البَيضاءُ والتَّجاعيدُ الطَّفيفة فوقَ جَبينِهِ وتحتَ عَينَيه، كانَ بَهيَّ الطَّلعَةِ والحَيَاةُ تليقُ به. وكنتُ أحدِّثُ نفسي أثناءَ كلامِه: "أيُعقلُ أن يكونَ هذا الرَّجُلُ والِدِي.. وأبي الذي لا أعرفُ عنه شيئًا غيرَ الاسم؟ لماذا لم تترُكْ لي وفاءُ المَزيدَ من المعلومات عنه؟ لماذا أبقتْ لي اسمَ غيث الرَّاسي لُغزًا مُخيفًا.. واختفَتْ هي الأخرى آخذةً أسرارَها وأحاجيَها معها؟". كانَ الجَوَابُ الذي سكَنَ قلبي منذ تلكَ السَّنَواتِ البَعيدَة.. أنَّه لا بُدَّ وفاء كانت ستُخبرُني بالحَقيقَة.. ولكنَّ الموتَ عاجَلَها.. وسَرَقني! والقدَرُ لم يَقلْ كلمَتَه النِّهائيَّة بعد في هذه القضيَّة.. ولكنَّه مَطَّها أربَعينَ عامًا.. ليَضَعَ لها خواتيمَها الدَّاميَة، وتذييلاتِها الحَزينة في الوقتِ الذي رآه مناسبًا، ثمَّ أسدَلَ السِّتَارَةَ في المَشهَدِ الأخير. كانت وفاء تُراهنُ على شَيْءٍ ما.. وظنَّته خَيْرًا.. ولكنَّ الرِّياحَ تجري كما لا تشتهي السُّفُن. لقد أمسكتِ الحَقيقةُ بيَدي وأركَضَتْني وراءَها في بَرِّيَةِ تلكَ السَّنواتِ الطّويلة.. وتعَرَّتْ أمامي فجأةً! لتقولَ لي في شبهِ سؤال: "هذا أنا.. أليسَ من الأفضل لكَ لو لم تَعرفني؟".

ثمَّ حَضَّرَتِ الخادمَةُ المائدَة، فدخلنا غَسَّان وَغيث وأنا وتناولنا الغداء، وشَربنا العرَقَ أيضًا، وتسامَرْنا وضَحِكنا كثيرًا. وأرادَها غسَّان الجُردي هكذا ليُقرِّبَ بيني وبين غيث. ولكنَّ غيث لم يتَحدَّثْ بمَوضُوعِه إليّ.. ولا بادَرَ غَسَّان بشَيء. وانتَهَينا من الغداء، وشربنا القهوَة. ثمَّ أشعَلَ غسَّان سيكارَهُ وقالَ مُنتَحنِحًا:

– أرجو أن تأذنا لي لبَعض الوقت، لدَيَّ قليلٌ من العَمَل في مَكتبي، وأنتما لديكما ما تتحَدَّثانِ به. البَيتُ بَيتُكُما.. سأعود.

فقلتُ أنا لغيث من فوري، يَحدُوني الشَّوْقُ إلى حَديثِه:

– حسنًا.. لماذا لا نتمَشَّى في الحَديقة؟ فَوَافق.. وَخرَجنا إلى الحَديقة. قالَ لي:

– أنا بحاجَة إلى خمسَةِ رجالٍ "قبَضايات" يا صَخر.

– أمرُك عالرّاس وعالعَين سيِّد غيث. الموضوع شِبهُ مُنتهٍ.

– ولكن.. هؤلاءِ ليسوا همُ الخِدمَة التي أريدُها منكَ في الحَقيقَة..

– قل ما تُريد.. وأنا حاضر لأيِّ خِدمة. السَيِّد غَسَّان الجُردي عزيز على القلب ونحن مديونون له بالكثير، وأنتَ تستَحِقّ.

فتابعَ غيث كلامَه، بعدَ أن أشعَلَ سيكارَةً ونفَثَ الدُّخانَ في الهَواء.

– أنت تعرفُ يا صَخر.. رجُلُ أعمالٍ مثلي له تاريخ.. تاريخ حافل! أقصد منافسون، حُسَّاد، كائدون، مُنتقمون ينتظرون فرصة للهُجُوم عليه..

كانَ كلامُه هنا يَهُزُّني هَزًّا مُخيفًا!! لقد وجَدتُ فيه خُيُوطًا.. بل دُرُوبًا مَفتوحَة للبَدءِ برحلةِ اكتشافِ هذه الشَّخصيَّة الأحجيَة.. والتي جَمَعَني القدَرُ بها جَمعَةً تافِهةً لا مَعنًى لها البتة. بدأ غيث يَتحدَّثُ عن أسرارِه. وأنا مُحتَرفُ الحَيَواتِ التي تلفُّها الأسرارُ والخَفايا الكثيرَة.

– ماذا تقصدُ بجَمْعَةٍ تافهةٍ لا مَعنًى لها يا صَخر؟ قاطعَ المُحقِّقُ كلامَ صَخر بسُؤال.

– ستعرفُ في النِّهَاية أيُّها المُحقِّق.

قالَ غيث:

– هناكَ أعداءُ يكمنون لي.. وليسَ هكذا فقط.. بل هناكَ تهديداتٌ حَقيقيَّة مباشرَة.. أقصدُ تهديدًا بالقتل.

فأجَبْتُه من فوري:

– خلال أيّام قليلةٍ ستكون في حمايةِ أفضل رجالي.. اطمئِنّ سيِّد غيث.

– لا لا.. يا صَخر. أعرف بأنَّ رجالَكَ ذوو بأس. ولكنّي طالبٌ منكَ خدمةً خاصَّة مُحَدَّدَة.. وسِريَّة للغاية! حتى غَسَّان الجُردي لا يعرف ما سأطلبُه منك الآن.

– لقد شَغلتَ لي بالي سيِّد غيث.. أفصِح عن مُرادِكَ وأنا رَهنُ بنانِك!

– أريدُ قاتلاً مأجورًا.

كانَ كلامُ غيث هنا مُفاجئَةً كبيرَةً لي.. وبَدأ التوتُّرُ يزحَفُ إلى قلبي. ثمَّ أضاف:

– أريدُ أن أتغَدَّاها قبلَ أن تتعَشَّاني تلكَ العاهرَة!

– أهيَ امرأةٌ تلكَ التي تُهدِّدُكَ سيِّد غيث؟ سألتُه مُستغربًا، وأجابَ بوضوح:

– صَحيح. إيميه.. إيميه جَبُّور مُهندسة الدِّيكور وصاحبة شركة J.DECO VIEW.

وقاطَع المُحَقِّقُ كلامَ صَخر مَرَّةً ثانيَة وقال:

– حَدسي يُنبئُني بأنَّ إيميه جَبُّور هذه تحتلُّ حيِّزًا هامًّا في هذا الموزاييك الطّريف.

وَتابعَ صَخر:

– ثمَّ حَدَّثَني غيث عن إيميه وشَركتِها قليلاً.. وَفرُوعِ شَركتِها وشُركائِها في لبنان وفرنسا. وقالَ لي بأنّها تسكنُ في شُقَّةٍ فسيحَةٍ فخمَة في الرَّابيَة. لستُ أدري.. لقد ضَيَّعتُ نفسي بالكامل في هذا الطّابور منَ المُستجدَّات المُدهشَة. حَيَاةُ المَشاهير عجائبُ وغرائب! لقد شَدَّتني حكايةُ غيث الرَّاسي وإيميه جَبُّور لدرجة أنّي نسيتُ حِكايَتي أنا. ورأيتُ أنَّ لا وقتَ الآن لمَوضوعي معَه.. ولأترُكِ العِلاقة بَينَنا تَقلِبْ قلَبَاتِها من تلقاءِ نفسِها، وتُعلنْ لي بإرادَتِها عَمَّا أنا ساعٍ إليه. أخذتُ أفكِّرُ في إيميه جَبُّور هذه.. من عَسَاها تَكون؟ وأيّ عُقدَةٍ مُخيفةٍ شَكَلتها بتَطريزاتِ غيث البزنوسِيَاسيَّة. وقالَ لي بأنّها عَزْباءُ ثريَّة، قصرَتْ حَياتَها لمِهنتِها وقد انجَزَتْ تُحَفًا هندسيَّة تاريخيَّة، وحَصَلتْ على جوائزَ عالميَّة أيضًا. بالمُختَصَر.. إيميه جَبُّور امرأةٌ ذكيَّةٌ قويَّة. ثمَّ قالَ لي أخيرًا:

– إيميه بالنِّسبةِ إليَّ عَدُوٌّ خَطير.. بل قضيَّةُ حَياةٍ أو مَوت! وأنا لا أريدُ لهذِه السَّاحِرَة الجَميلة، أن تستَحضِرَ منَ الماضي شَعوَذةً لتلوِّثَ وتدَمِّرَ تَعَبي وَجَنَى عُمري.. فالسُّمْعَة

موضوعٌ حَسَّاسٌ جدًّا لكلٍّ من يُريد أن يشتَغلَ في الشَّأن العامّ. وأنت ذكِيٌّ وشُجَاع.. حَدِّدْ لي سِعرَك.

ثمَّ تركتُ غَيث في ضيَافةِ غسَّان الجُردي في البَرْبارة، وعُدتُ إلى بيروت.

لم أعطِ غيث مُوافقَتي، وَطلبتُ وقتًا للتَّفكير. معَ أنِّي لمْ أقتُلْ في حَيَاتي لا بأجرَةٍ ولا بغيرِ أجرَة! فأنا لستُ قاتلاً. وكانَ عليَّ أن أرفضَ طلبَهُ من فوري. ولكنَّ الدّرَاما النّاشبَة بينَه وبَينَ إيميه بدَتْ لي مُثيرَةً مُشَوِّقة، وحَلقاتُها قد تُفضِي إلى هوامشَ مُفيدَة. شَعَرتُ كأنِّي فأرٌ علقَ في المَصيدَة! والخيارات مَعدومَة. كانَ اسمُ غيث الرَّاسي في الماضي حلُمًا جَميلاً.. وإذا بهِ الآنَ كابوسٌ مُرْعِب! أيّ تَعويذَةٍ أودَعَتني إيّاها وَفاء؟! لم أفكِّر قطّ في القاتِلِ المأجور.. ولم اعْطِ رَدًّا لغَيث.. كانت إيميه وَحدَها، وطوالَ أسبوعَين، قبلةَ أفكاري. وَفَجأةً! هبَطَ عليَّ الوَحيُ ذاتَ مسَاءٍ، وأنا أشاهدُ فيلم أكشن أميركيّ وأشرب كأسًا. كانت فكرَةً مُلهَمَة! يجبُ أن أذهبَ إلى إيميه جَبُّور وأزُورَها في شُقَّتِها في الرَّابيَة. يجبُ أن أقابلَها وأحادثَها. لماذا؟ لستُ أدري. الفضوليَّةُ دائمًا دينامو الاكتشافات، وأنا أريدُ أن أعرفَ سِرَّ التَّحَاقُدِ المُتبادَل بينَهما، ولماذا هيَ قادرَة على تَدميرِ إنجازاتِه؟ والمَعلوماتُ عنها تُفيدُ مِهْنتَنا. وفي الطّريق علَّني أصادفُ حَقيقةَ غيث بالنِّسبَةِ إليّ. وهكذا كان.

حَصلتُ على أرقامِها على مواقع السُّوشَل ميديا واتَّصلتُ بها، وعرَّفتُ عن نفسي أنّني مالكُ شركةِ أمنٍ وحِمايةِ الشَّخصيَّات، عارضًا عليها خدَماتي كونَها هي أيضًا من عِلِيَةِ القَوْم. ولقد أدهشَني ابتهاجُها بي وترحيبُها المُلِحُّ الغريب.. فضرَبتْ لي موعِدًا لكي أزورَها في شقَّتِها في اليوم التالي مساءً. فجئتُ إلى الرَّابيَة. وعندَما كنتُ أنتظرُها في الرَّدْهةِ الفسيحَةِ في منزِلِها الخُرافيِّ الذي يَنِمُّ عن ثقافةٍ فنيَّةٍ ذات مستوىً رَفيع.. تَجلَّت أمامي فجأةً كأنَّها رُؤيًا.. أو رُوحٌ منَ الغيبِ يَمْتزجُ فيه الوقارُ الغَربيُّ بالسّتايل الشَّرقِيِّ الأنيق. وبدا واضحًا أنَّ صَبغةَ الشَّعر لم تُخْفِ زَحْفَ الشَّيبِ إلى الشَّقارِ الذَّابل. وبالرَّغمِ منَ التَّجاعيدِ الطّفيفة فالتَّبَرُّجاتُ أحيَتْ جاذبيَّةً من شبابِها الآفل. وهَيبَةُ طلَّتِها تَشِي بأنَّها كانت امرأةً جميلةً جدًّا. إيميه جَبُّور امرأةٌ مثيرَةٌ للجَدَل حقًّا. ثمَّ قالت لي بصَوتٍ رُجُوليِّ النَّبرَةِ، يَنمُّ عن إرادَةٍ حازمةٍ صلَبَة:

– سيِّد صَخر.. تَفَضَّل معي إلى المكتب أرجوك. وأشارت لي بيَدِها في الاتّجاه المَقصود.

خطَوتُ أنا أوَّلاً خَطوتَين ووَقَفتُ.. ثمَّ دَخلت وَرائي.. وتصافحنا وتعارفنا. طلبَتْ لي فنجانَ قهوة، وجلسَتْ مقابلي أمامَ مَكتبِها يَفصلُ بيننا طاولةٌ مربَّعَة زُجاجيَّة مُنخفضَة ذات خطوط سَوداء وذهبيَّة. كانت ديكوراتُ المَكانِ ساحرَة في كونتراست بَديع بين الألوانِ الباردَة والخَشَبيَّات السَّوداء، والخطوطِ الذَّهبيَّةِ العاموديَّة. كنت أتوقّع أن تعطيَني فرصةً للكلام لأشرحَ لها عن "سبَبِ" زيارَتي، فأعرضَ عليها نوعَ خدَماتِنا. ولكنّي فوجئت بأنَّها لم تفعَل..! وراحَت تتحدَّث إليّ كأنَّها ترجو لقائي منذ زَمَن.. أو كأنّي مَنفِذٌ لمَتاهَةٍ، أو انِّي هبَطتُ عليها منَ السَّمَاء حَلاًّ لقضيَّة. قالت لي مباشرةً كأنّها تُبرمُ صَفقة:

– لا يَهُمُّني الرَّقمُ البَتة سيِّد صَخر.. سأعطيك ما تُريد منَ المال.

– أنا رَهنُ إشارتِكِ سيِّدَتي. قلتُ لها من فوري.

قرَّبَتْ لي علبةَ سكائِرها، وقالت:

– سيكارَة؟

– شُكرًا.. أفضّل أن أدخِّنَ من سكائري.

وسَحَبتُ علبَتي من جَيبي، وأشعلتُ سيكارة. ثمَّ تابعَتِ الكلام:

– هناكَ ثأرٌ قديم، قديمٌ جدًّا.. بَيني وبينَ غيث الرَّاسي.. وأنا أريدُ قاتلاً مأجورًا!

وَقعَتْ كلماتُها عليَّ وقوعَ الصَّاعقة! جَفَّ الدَّمُ في عُرُوقي، وَشَعَرتُ للَحظَة بأنَّ دِماغي تخَدَّر. لقد طلبَتِ الأمرَ عينَهُ الذي طلبَهُ منِّي غيث! وهَل هذا مَعقول؟! أيُّ مأساةٍ مَلهاة هذه؟! أيُّ ثورَةٍ حاقدَةٍ مُختبئة في قلبِ كلٍّ من المُهندِسَة والاقتِصاديِّ الكبير؟! وأيُّ قدَرٍ ساخِرٍ هازِلٍ حتى جعَلَني الحَجَرَ الواحدَ الذي أردَى العُصفورَين في نهايةِ المَطاف!! أتُراها تَحقيقٌ لكلماتِ النُّبُوْءَة.. نبُوْءَةِ وَفاء على صَفحَةِ غلافِ الإنجيل؟

– ولكنِّي لستُ قاتلاً مأجورًا!! أنا رَجُل أمنٍ وحِماية! هذِه مِهنتي.

أجَبْتُ من فوري، مُحاولاً التملُّصَ من طلبِها. فتَابَعَتْ حَديثَها:

– سأعطيكَ رَقمًا خَيَاليًّا.. مليونَي دولار.. ومُرَشَّحَة للزِّيادَة.

تكلَّمَتْ كأنَّها لم تسمَعْ ما قلتُهُ لها. هذا وَنغمَةُ صَوتِها مُدَوزنَة على مفتاحِ الحِقدِ العَميق الذي تئِنُّ به أحشاؤُها. فكَّرْتُ للحَظاتٍ كأنَّها دَهر، ثمَّ قلت:

– هذه لن أنجُوَ منها البتَّة يا سيِّدَتي. فقالت لي على الفور:

– خمسة ملايين دولار كافية لتجعلَكَ حُرًّا طليقًا. فتُشِئَ شركةً أخرى في الخارج. وأنا أعرف جيِّدًا أنَّ مِظلَّتَكَ السِّياسيَّة من حَديد.. فيما لو افتُضِحَ الأمر! قالت وعَيناها تومضان في خبثٍ ودَهاء.

– لن أعطيَكِ جَوابًا سيِّدَتي.. سآخذُ وقتي في التَّفكير. وأريدُ وقتًا كافيًا.

قلتُ هذا.. مُحاولاً إبقاءَ نافذة التَّواصُل مفتوحةً بينَنا. ولكنَّ اللَّقطةَ الطّريفة التي علِقتُ بها.. أنِّي أصبَحتُ العُقدَةَ الوسطى في الحَبلِ بينَ فَريقَين، يَشُدُّ كلٌّ منهما في اتِّجاهٍ مُعاكس. الاثنان يريدان قاتلاً مأجورًا! والاثنان هما القاتلُ والمَقتول! والمُضحِكُ المُبكي في آنٍ معًا.. أنَّ الاثنَين يَطلبان منِّي أن أكون أنا أداةَ هذا التَّقاتُلِ الثأريِّ المَجْنون! كنتُ في موقفٍ لا أحسَدُ عليه. شعَرتُ بنَزْعةٍ عَميقةٍ في كياني.. كأنَّ القدَرَ اختارَني أن أقتلَ هذين الحَاقدَين المُزمِنَين.. تنفيذًا لإرادَتِهما، فيَكون والحالة هذه حِقدُهُما هو قاضِيَهُما. وَأمّا وَضعي النَّفسِيّ في تلكَ اللّحظَة، صدِّقني أيُّها المُحقِّق، لا يَرقى إليه وَصْفٌ أو بَيَان. كنتُ مُكتئبًا.. تائِهًا.. وَضَعيفًا جدًّا.. كضَعفِ المُتَّهَمِ أمامَ قاضِي المَحكمَة. داخلني شُعورٌ مُخيف بأنَّ إيميه جَبُّور هي حَجَرُ الزَّاويَة.. والقِطعَةُ المَفقودَة التي لن تَكتمِلَ لوحَةُ اللّغز بلاها. وها قد وَصَلتُ إليها قبلَ أن أتحَقَّقَ من خَلفيَّةِ وهُويَّةِ غيث الرَّاسي. ثمَّ سَألَتْني وقد رَأتْ جَبيني يتَعَرَّق:

– ما بك؟ أخائفٌ أنتَ حقًّا؟

– المَوقفُ مَهيب سيِّدَتي. أجَبتُها وأنا أحاولُ أن أهدِّئَ أعصابي بمَجَّةٍ من سيكارَتي.

بقيَتْ هي صامتةً.. وأنا أيضًا.. وكلانا يُعارِكُ سيكارَتَه. ثمَّ وصلَتِ القَهوة. سألتُها.. والمَوقفُ يَحتاجُ منّي توَغُّلاً واكتشافات. ولسانُ حالي تمامًا كالجُندِيّ في بدايةِ المعركة، وهو لتوِّهِ بدأ يقرأُ خارطةَ المَواقِع العَدُوَّة. نظَرْتُ في عَيْنَين حُلوَتَين ذاويَتَين، أكسبَتْها التبَرُّجاتُ مزيدًا منَ الرَّونق والجَاذبيَّة:

– ما حِكايتُكِ معَ غيث الرَّاسِي بالضَّبط؟

وَشَرَعَت إيميه تقُصُّ عليَّ حكايةَ حُبِّها معَ غيث منذ أيَّام شَبَابِهِما. وكيفَ تعلَّقَتْ بهِ لدَرَجَة الهَوَس، وكيفَ قادَها الحُبُّ القويُّ إلى اللذَّةِ المَحرَّمَة في سَهْوَةٍ غافلةٍ منهما ضَعيفة.. وكانا متواعِدَين على الزَّوَاج. وفجأة! تبَخَّرَ غيث.. رَحَلَ إلى العَدَم.. وانتَهَى الحُبُّ نهايةً تافِهَة بعدَ أن كانَ في الذُّرْوَة، ليُخلِّفَ ورَاءَه دَمارًا وفسادًا استغرَقَ منها سَنواتٍ شاقَّة لإعادةِ التَّرميم. لقد باعَ غيث إيميه بطمُوحِهِ الجَّامِح، وبَعثرَ أحلامَها، وَسَرقَ منها باكورةَ عَوَاطفِها اللَّطيفة. ولكنَّها لمْ تُشْفَ قطّ من عبَثِهِ المتوَحِّش في حَياتِها.. ومعَ كلِّ هذا العُمْر! كانت إيميه تتحَدَّثُ والغَصَّة تُغلِّفُ كلماتِها بإيقاعٍ قاتم. قالت لي:

– أروي لكَ قِصَّتي معَ غيث لتَفهَمَ جيِّدًا أنَّ قضيَّتي إنسَانيَّة.. ولي عندَ غيث الكثير الكثير.

– ماذا فعَلتِ بعدَ ذلكَ؟ سألتُها.

– لقد خلَّفتُ طِفلي سِرًّا. وكنتُ عازمَة على قتلِهِ جَنينًا! أمِّي رَفضَتْ. لقد أخذَتْهُ إلى مَيْتمِ راهباتِ العازاريَّة في برمَّانا، ولا أدري لماذا.

– ما اسمُ والدَتِكِ سيِّدَة إيميه؟ سألتُها أيضًا والنَّارُ تزدادُ اشتعالاً في قلبي.

– وَفاء. أجابَتْ.

عندَ هذه الكلمَة.. انفجرَ البُركانُ في داخلي! وبلَغت توتُّراتُ نفسي حَدَّ الجُنون! لقد أرَدتُ أن أصرُخَ في وَجهِها وأعلنَ لها حَقيقة ذاتي.. أنا هو فتى المَيتم.. أنا هو الطّفلُ الذي كانَ ثمرَةَ حبِّكِ الجَريح، وثمَنَ آلامِك الطّويلة. حضرَني فجأةً سؤالٌ غريب! قبل أنْ أقولَ لها من هو الذي يَجلسُ قبالتَها.. ويَستمِعُ بعُمق لسَقيطِ وزُبدَةِ أوجاعِها، كأنّه وَحيٌ آسِر.. وإلهامٌ غَيْبيٌّ يُريدُ أن يرسُمَ طريقًا أخرى لهذِهِ المأساة. سَألتُها:

– ماذا لو ظهَرَ ابنُكِ في مكانٍ ما في هذِه الدُّنيا؟ وجمَعَتكما الصّدفة!

فأجابَتني بقسَاوَةٍ مُرَّة.. وثورَةٍ حاقدَةٍ لم تُبقِ في ذاتِها نَسمَةَ رقَّة.. كأنَّها امرَأةٌ من حَديد.

– لا سيّد صَخر. لقد كانَ طِفلي جزْءًا من جُرْحي.. وهو من مُخلَّفاتِ نجاساتِ غيث في حياتي. لقد "كَنسلَتهُ" من ذاكرَتي منذ أن أخذَتَه وفاء إلى المَيْتم. حتى لو كانَ رَجُلاً ذا شأن.. هذا قدَرُه وهذا قدَري. لن أسعى إليه أبدًا. وهل أصَدِّقُ أنا إنسانًا آتيًا منَ المَجهول، بعدَ كلِّ هذا العَمْر، ليَدَّعيَ بأنَّهُ ابنِي؟!

كانت هذه الكلمات كافيةً لتدمير ما بَقِي في قلبي من رَجاءٍ أيُّها المُحَقِّق. اكتشَفتُ لتَوِّي بأنِّي كنت أعيشُ أمَلاً كاذبًا. لقد حَطّمَتْ مَحدلَةُ الحِقدِ وشهوةُ الانتقام بُقيا دوافعَ إنسانيَّةٍ خيِّرَة. وتحوَّلَ التَوتُّرُ النَفسيُّ فجأةً إلى سَخطٍ وَخيبَةٍ غاضبَة. لقد مَسَخَتِ المشاعرُ الانتقاميَّةُ الحُبَّ وعاطفةَ الأمومةِ والغفرانَ إلى دُمًى وعَبَثاتٍ مُضحكَةٍ على هامشِ التَّجربةِ الإنسانيَّة. كيف يمكنُ لأمٍّ أن تذعِنَ لأمرِ الثأر وتتمرَّدَ على أنوثتِها وأمومتِها؟! كنتُ أمامَ إيميه متمالكًا.. وفي داخلي رَفضٌ واستنكارٌ وحُزْنٌ عميق. لم أسألها شَيئًا بعدَها.. بَقيتُ صامتًا.. شَبَحًا آدميًّا نصفَ حَيّ.. أسمعُها ولا أعي كلامَها.. وأهزُّ برأسي موافقًا على ما تقول. شربتُ قهوَتي.. وكانت هي تمُجُّ الدُّخانَ من سيكارَتِها الطّويلةِ الدَّقيقة، وتتحدَّثُ كأنَّها حاصلة على مبتغاها بشكلٍ حَتمِيّ. ثمَّ انتَهَتْ أخيرًا من الكلام.. فقلتُ لها:

– أحتاجُ لأسبوعَين للتَّفكير والتَّخطيط سيِّدَة إيميه.

ورَدَّتْ هي:

– ليكن لكَ ما تُريد.

ثمَّ استأذنتُها وانصرَفت.

خرَجتُ من عندِها مُحبَطًا للغاية. ما كان يخطرُ لبالي قطّ أن تكون نهايةُ النَّفق جدارًا أسودَ عَظيمًا. يا لها من خَيْبَة! كانَ الفرَحُ يتدفَّقُ في قلبي كلَّما فتَحْتُ إنجيلَ وفاء وقرَأتُ الاسمَ، على صَفحَةِ الغلافِ منَ الدّاخِل، النُّبُوْءَةَ اللَّعنة! ما كنتُ أحسبُ نفسِي قطّ أنّي نتيجَةُ معادلةٍ عَرْجاءَ.. جمَعَتْ بينَ نَقيضَين في صدفةٍ متمَرِّدَة. لقد خَبَّآ، إيميه وغيث، ثمَرَةَ النَّزْوَةِ العابثة في ذلكَ المَيتَم الموحِش غيرَ آسِفَين.. غير مُكترثَين. إذا كانت إيميه جَبُّور غيرَ عابئةٍ بمَصيرِ ولَيدِها.. أتُرَى غيث فاعل؟ حتمًا لا. لقدِ انجلَتِ الحَقيقةُ لي، وكانت حَقيقةً قاسيَة!

– وإذًا غيث الرَّاسي والدُكَ الحَقيقيّ يا صَخر.. وإيميه جَبُّور هي وَالدتُك؟

قاطعَ المُحقِّقُ كلامَ صَخر بسُؤال، وراحَ هذا الأخير يُشعل سيكارَة. وأضافَ المُحقِّق:

– وكلٌّ منهُما طلبَ منكَ قتلَ الآخر.. جَميل، جَميل جدًّا! ولأنَّهُما لا يكترثان لأمرِكَ نفَّذتَ طلبَهُما.

عادَ صَخر وتابعَ روايتَه:

– فهمتُ كلَّ شَيْء.. وانتابَني اكتئابٌ مَرير. لقد فكَّرتُ كثيرًا بهما.. أجَل، فكَّرتُ بأبي وأمّي. فكَّرتُ بحلُمي الضَّائع ووَحشَتي الخائبَة. وقادني الاستنتاجُ إلى أنَّه ولو أرَيتُهُما الأدلَّة والبيِّنات على كَوني ابنَهُما.. سيَرفُضانَني بتُهمَةِ أنِّي مُحتالٌ مُدَّعٍ! هما ثريَّان والطّامعون الحاسدون كثار. هنا نِهايةُ المَطاف.. وا أسَفاه! هذا وأصبَحَتْ شَهوةُ الانتقام الظّالمَة تلكَ السَّمكةَ الكبيرة التي ابتلعَتِ الصَّغيرات. وبعدَ أيَّامٍ وليالٍ من الصِّراع والتَّفكير الكثير، وللمَرَّةِ الأولى في حَياتي.. بَكَيْت! أخذتُ قراري بتَنفيذِ إرادَتِهما. وإذا كانَ كلٌّ منهما يريدُ قتلَ الآخر، فليَفعَلا هما هذا الأمر، وليَقتُلْ واحدُهُما الآخرَ بسِلاحِهِ!

– وهكذا بدا الأمرُ كأنَّها "شِبْهُ انتِحَارٍ مُتبَادَل" وتَصفيةُ حسابٍ بَينَ حَبيبَين قديمَين! قالَ المُحقِّقُ شَكيب لصَخر سويدان.

وتابعَ صَخر كلامَه أيضًا:

– لقد وَضَعتُ خُطَّةً لدَفعِ كلٍّ من غيث وإيميه أن يقتلَ واحدُهما الآخر. وأبقى أنا مجرَّد أداةٍ.. أو مُستَخدَم.. تمريرَةٍ لوجستيَّة لا أكثر. وكانت خُطَّتي شبهَ ناجحَةٍ لولا تدخُّلُ عُنصر آخر مفاجئ لم احسِبْ له حسابًا.. ولكنَّه كانَ عامِلاً مُفيدًا.

– أنتَ رَجُلٌ ذكيٌّ يا صَخر.. ما هي هذه الخُطَّة الجَهنَّميَة التي وَضَعتَها؟

سألَ المُحقِّقُ وعيناه جاحظَتان نحو صَخر، بل كلُّ حَواسِّهِ في حالةِ يقظة، لسَماعِ خاتمة هذه الحكاية التي اتعَبَهُ طولُ سَرْديَّاتِها. وتابعَ صَخر:

– المَطلوبُ حَتْفٌ غيرُ مباشَر لغيث على حَملِ سلاحِه والذّهاب إلى إيميه وقَتلُها. وأيضًا حَتْفٌ إيميه على حَملِ سِلاحِها والذَّهاب إلى غيث وقتلُه. هكذا بكلِّ بسَاطَة! وأنا المُخرجُ المتواري وَرَاءَ كواليسِ الجَريمَة.. أراقبُ الأداء. فإذا حدَثَ خطأ ما، هذه مِهنتي وأنا بارعٌ فيها، أخرُجُ من مَخبَئِي وأصحِّح الخطأ معَ تعديلاتٍ في عناصر مسرح الجَريمة لتبدُوَ إطلاقَ نارٍ مُتبادلاً. ولكن لم يكن هناك داعٍ لتدَخُّلي. لقد اشترَيتُ خَطَّين وهاتفَين خصِّيصًا لهذه العَمَليَّة، ثمَّ أمَرتُ رجالي أن يخطفوا ابنَ غيث من زَوجتِه اللبنانيَّة التي تزوَّجها عندما عادَ إلى لبنان، زَيد وعمره ١٥ عامًا. وأمَرتُ بخَطف ابنةِ أختِ إيميه أيضًا، تلكَ الصَبيَّة الذَكيَّة جُمانه التي تعملُ في شَركةِ إيميه جَبُّور وعمرُها ٢٤ عامًا. وأرسلتُ رسالتَين على تطبيق الواتسآب لكُلٍّ من غيث وإيميه. رسالة إلى غيث على الخَطِّ الأوَّل، أقولُ فيها: "ابنكَ زَيد معي وهو بحالةٍ جيّدَة، تعالَ لنتَفاهم. المكان هو البيت المَسكون فيلاّ شَلهوب النَقَّاش، والزَّمان اللَّيلة السّاعة التاسعة مساءً، إيميه". ورسالة ثانية على الخَطّ الثاني إلى إيميه أقولُ فيها: "ابنةُ أختِكِ جُمانة معي وهي بحالةٍ جيِّدَة، تعالَي لنتَفاهم، المكان البَيت المَسكون فيلاّ شَلهوب النَقَّاش، والزَّمان اللَّيلة السَّاعة التاسعَة مساءً، غيث". ثمَّ رَمَيتُ الخَطَّين من فوري في مستَوعَبِ القُمَامَة. لقد استدرَجتُهما إلى تلكَ الفيلاّ الصَّفراء المَحْرُوقة والمَهْجُورَة منذ زَمَن، والتي يُقال أنَّها مَسكونة، في وَسطِ ذلكَ البُستانِ القبيح المُحاذي للطَّريق العامّ. كنتُ واثقًا من نجاح خُطَّةِ الاستدراج هذه، ورِهاني على اتِّقادِ الحِقدِ فيهما كانَ رابحًا. الحِقد.. والحِقدُ وَحدَه

سيَدفعُهُما ليُواجِهَ واحدُهما الآخر.. وبالتالي ليقتُلَ واحدُها الآخر. وجئتُ أنا قبلَ ساعة، بلباسٍ عاديٍّ بسيطٍ كي لا أجذبَ الانتِباه، ومُسدَّسي تحتَ جَوْرَبي الأيسَر. ركَنتُ سيَّارتي بَعيدًا في موقفِ السيّارات، وتسلَّلتُ إلى داخلِ الفيلاّ.. ليسَ عبرَ بَوَّابتِها الحَديديَّة المُهترئَةِ لجهةِ الطَّريق، بل من الخلف حيث قفَزْتُ فوقَ السُّور، وهَرْولتُ في الحَديقةِ المبَعثَرَة إلى الدَّاخل. كانَ ضَوءُ البنايةِ المُجَاورة ومصابيحُ الشَّارع القويَّة تفسِحُ في المَجالِ للرُّؤيةِ داخلَ هذه الفيلاَّ التي ليسَ لها أبوابٌ ولا شبابيك. وقبَعْتُ في مكاني أعُدُّ الدَّقائقَ والثّواني أنتظرُهما.

– وكاميرا السّوبرماركت قرب محطَّةِ الوُقود صَوَّرَتك قبلَ ساعة من حدوث الجَريمَة. قالَ المُحقِّقُ شكيب لصَخر. بقيَ صَخر ساكتًا، وأضافَ المُحقّق:

– كنتُ أعرفُ علاقتَكَ بغَيث، ودَوْرَكَ في لعبَةِ الأمنِ والحِمَاية. ولذا بدأتُ أتحَرَّى عنكَ. ووُجودُكَ في ذاكرةِ كاميرا محَطَّةِ الوقود عَزَّزَت شُكوكي من نَحوك.

عادَ صَخر وَتابعَ الكلام.

– رُحتُ في مَكاني أشعلُ السّيكارَة تلوَ السّيكارَة، وآتي إلى الشُّرفةِ المُطلَّة على الشّارع، ثمَّ أنظرُ منَ النَّوافذِ المَحْرُوقة. قلتُ في نفسي: "إذا كانَ هذا البيت مَسكونًا برُوْحٍ شِرِّيرة.. فهو مَسكونٌ بي أنا.. فأنا الآنَ الشِّرِّيرُ الوَحيد في هذا المكان. وعَمَّا قليل سيَكون مَسكونًا بأرواحٍ شِرِّيرَةٍ ثلاث". بدأتْ تمطرُ مطَرًا خَفيفًا، وتوارَتِ النُّجُومُ ورَاءَ الغُيوم كأنَّها خائفة ممَّا رَأتهُ قبلَ حُدُوثِه! وما هي إلاّ نصفِ ساعَة حتى رأيتُ غيث ماشيًا بهدُوءٍ على الرَّصيف.. وقفَ قليلاً قربَ البَوَّابة.. ثمَّ تابعَ إلى حيث قفَزْتُ أنا. ولكنَّ غيث ليسَ شابًّا. حاولَ المِسكين مَرَّتَين وفي الثالثةِ وثبَ ووَقعَ على ظهره في الحَديقة. ثمَّ نفضَ الأوساخَ عنهُ ومَشَى.. ودَخلَ ووقفَ في وسَطِ الرَّدْهةِ المُضَاءَةِ منَ الشُّعاعاتِ الخارجيَّة. وأمّا أنا فكنتُ مُختبئًا في إحدى الغرفِ المُظلمة، صامتًا صمتَ القبور. كانَ غيث بلباسٍ رياضِيٍّ هو الآخر.. جينز واسبدرين وقميص مضلَّعَة، وكانَ متَجَهِّمَ المَلامِح. ثمَّ راحَ يمشي جيئةً وذهابًا وخطَوَاتُه لا تُحدثُ أيَّ صَوت. وفجأةً!

سمِعْتُ ضَجيجَ البَوَّابةِ الخافت، ثمَّ خَطَواتِ كعبِ حذاءٍ نسائِيٍّ في المَمشى الخارجيّ عبرَ البَوَّابةِ الحَديديَّة. نادَى غيث لإيميه:

– أصعَدي إلى هنا يا إيميه.. هنا يستطيعُ أن يرَى واحدُنا الآخر في الضَّوْء.

وهكذا وقفَ الاثنان في الرَّدْهةِ المُضيئَةِ، وَجْهًا لوَجه، تُحيطُهما الظُّلمةُ من كلِّ ناحيَة.

كنتُ أترقَّبُ حدوثَ الأخطاء، لأتدخَّلَ وأنهي المَسألة كما أريد بسِلاحي. كنتُ أتلصَّصُ من رُكني على أحداثِ خاتمَةِ هذه المَلحَمَةِ العَظيمَة. سَحبَ غيث سلاحَه من وراءِ ظهرِه وشهَرَه بوجهِ إيميه وقالَ:

– لا دخلَ لابْنِي بحِساباتِنا يا إيميه جَبُّور.

وقالت إيميه وهي تسْحَبُ سِلاحَها من تحتِ كُمِّها الأيسَر:

– بل لا دَخلَ لابنةِ أختي بحِسَاباتِنا يا غيث الرَّاسي.

كانت توقُّعاتي تنبئُني بأنَّ إيميه ستطلقُ النَّارَ أوَّلاً لأنَّها هي السَّاعي الأوّلُ إلى الثّأر. وهي حتمًا لن تُصدِّقَه في ما يقول عن ابنِهِ زَيد! قالت له بنَبرَةٍ مِلؤُها الغَيظُ وَالمَرارة:

– لقد أفسَدْتَ حَيَاتي.. لقد دَمَّرتَني يا وَحش!

ثمَّ حدَثَ شِجَارٌ عنيفٌ وسُبابٌ لدَرَجةِ الصِّياح. أعتقِدُ انَّه لو سمِعَ واحدٌ منَ المارَّةِ على الطَّريق هذا الصِّياح.. لظَنَّ أنَّ فيلاً شَلهوب مَسْكونة حقًّا. ثمَّ صرخَت إيميه:

– كفى يا غيث.. لن أجادِلَك فأنا جئتُ لأقتلَكَ.

وأطلقتِ النّارَ عليه. رأيتُه أنا سَقطَ ولم يمُت! لأنَّه أطلقَ النّارَ عليها هو الآخر وهو على الأرض، وأصابَها وأرداها مباشَرَةً. كانت مُمَدَّة على الأرض بلا حِراك. ولكنَّ غيث راحَ يئنُّ ويَزْحَفُ إلى الجِدار ويُحاولُ أن يقِف. سَحَبتُ سِلاحي لأحمِيَ نفسي، وتسَلَّلتُ مِنْ مَكمَني قاصدًا إلى مُسَدَّسِ إيميه لأقتلَه به.. فأوقفَني صَوتُ خَطَواتٍ حذِرَةٍ على الدَّرَج بَطيئةٍ جدًّا.. لقد فضَحَها الحَصَى والأتربَةُ على الأرض. عُدتُ إلى مَخبَئِي في الظُّلمَة. ورأيتُ الوافدَ الجَديدَ في قلبِ المَشْهَد.. وقفَ في وسَطِ الرَّدْهةِ.. تأمَّلَ في

جثَّةِ إيميه.. ثمَّ راحَ ينظرُ إلى غيث الزَّاحِف إلى الجدار. اقترَبَ وأخذَ مُسَدَّسَ إيميه، كأنَّهُ قرَأَ أفكاري! واقتربَ من غَيث ليَرى غيث وَجْهَهُ جيِّدًا..

– الفنَّانة رُوْجا.. روجين آتشي! أليْسَ كذلَك؟ سألَ المُحَقِّقُ صَخر.

– صَحيح.. وقالت روجين لِغَيث:

– أنظرْ إليَّ جيِّدًا يا غيث الرَّاسِي.

وصارَ غيث ينظرُ في ملامِحِها جيِّدًا.. لدَقيقة.. ثمَّ تَمْتَمَ بهُدُوْء:

– رُوجين.. روجين آتشي!!

فقالت له:

– ذكيّ.. دائمًا كنتَ ذكيًّا.. لقد حَزِرْت. وأنتَ تعرفُ جيِّدًا أنّي جئتُ إليكَ لأنهيَ حِسَابَنا القديم.. القديم جدًّا يا غيث.

ثمَّ أطلقَتْ عليه رصاصةً واحدَةً في صَدْرِه وأرْدَته قتِيلاً. وَعادَتْ ووَضَعَتْ المُسَدَّسَ في يَدِ إيميه. تمامًا كما كنتُ سأفعَل أنا.

وقاطعَ المُحَقِّقُ كلامَ صَخر أيضًا:

– وسلَّمَتْ روجين نفسَها للدَّرَك في اليَومِ التَّالي.. ولكنَّ غَسَّان الجُردي أخرَجَها بعد أيّام. واتَّصلَ بي الوَزير بعدَ أسبوعين ليَقولَ لي:

– هذه القضيَّة أقفِلَتْ.. أوقِفِ التَّحقيقَ فَورًا.

فقالَ صَخر:

– والسَّبَب، وهكذا دائمًا، وهذا من حُسْنِ حَظِّي أيضًا! أنَّ هذه الحادثة ستُنَسِّلُ خيُوطًا كثيرةً من أسرار غيث وعُمَلائِهِ من رجالِ الاقتصاد والسِّيَاسَة، وبينهم غَسَّان الجُردي من جهةِ علاقتِه بالفنّانة رُوجا. ورُوجين سلَّمَتْ نَفسَها لحِمايَتي أنا، وغَسَّان حَرَّرَها.

وقفَ المُحَقِّق شَكيب مْدَوَّر وسيكارُه بيَدِه، وقالَ وهو يُشيرُ بيَدِهِ ليَستَوقفَ التَّاكسي:

– هذه الرِّواية انتهَتْ سِيَاسيًّا وَقضَائيًّا يا صَخر سويدان.. ولكنَّها إنسَانيًّا لا نهايَةَ لها.

– لماذا؟ سألَ صَخر، وقد قامَ هو أيضًا بعدَ أن غَمَسَ سيكارَتَه في المِنفضَة.

– لأنَّ زَيد.. ابْنَ غَيث، أقسَمَ في حَفلِ الجنازَة، أنَّ دِمَاءَ والدِه لن تذهبَ هَدْرًا.. وسيكون الثَّمنُ غاليًا جدًّا. وأنا أجزُمُ لكَ يا صَخر.. أنَّ لسانَ حال ابنَةِ أختِ إيميه.. جُمانه.. هكذا أيضًا. وما فاتَ مات.. وَمَا هو آتٍ آت.